

**جورجي زيدان**

١٩١٤ – ١٨٦١

لا يذكر اسم جورجي زيدان إلا وتذكر معه مجلة "الهلال". والعكس هو الصحيح أيضاً. إنهما رفيقا درب وعمر، ورفيقا نشأة ووظيفة ودور. لكن وحدتهما لا تلغي الطابع الخاص لكل منهما مستقلاً نسبياً عن الآخر. فلجورجي زيدان مؤسس مجلة "الهلال" تاريخ كان يتكون في داخل المجلة ثم تجاوزها، وصار يحمل اسمه مستقلاً عنها، حتى وهو يعطيها من روحه ومن عرقه ومن جهده كل ما كان يزيد لها قوة ومنعة، ويعطيها الدور الذي صار خليفاً بمجلة ذات وظيفة تنويرية من الدرجة الأولى. لكن المجلة ذاتها ظلت تتطور وتأخذ شخصيتها التي تحمل اسمها تحت قيادة جورجي زيدان وصولاً إلى اثنين كان لي شرف الارتباط بصداقة جميلة معهما هما كامل زهيرى ومصطفى نبيل في تسعينات القرن الماضي.

وأشهد أن لمجلة "الهلال" بالذات فضلاً كبيراً عليّ. فهي كانت في مطالع أربعينات القرن الماضي دليلى الأول إلى المعرفة في جوانبها المختلفة. إذ كنت مدمناً على قراءة أعدادها بانتظام. ومن خلالها تعرفت إلى كبار أدباء مصر من رواد النهضة الأدبية والفكرية. وسرعان ما انضمت إليها مجلة "الكاتب المصري" في النصف الثاني من الأربعينات. ومن خلال مجلة "الهلال" بالذات تعرفت فيمن تعرفت إليهم جورجي زيدان الذي تابعت بشغف قراءة رواياته التاريخية التي عرفنتني إلى جانب مضيء من تاريخنا العربي العريق.

لم أكن أعرف وأنا أتابع مجلة "الهلال" وأتلمع منها أن مؤسسها جورجي زيدان هو لبناني الولادة ومصري الهوية والنشاط والإبداع. كانت المجلة بالنسبة إليّ أحد مصادر حبي لمصر، وأحد مصادر معرفتي بها وبتاريخها. ومنذ ذلك التاريخ بالذات ولد في وجداني الحب لمصر الذي هو أحد عناصر اعتزازي بها وبشعبها، وبالذات الذي ننتظر بفرح وأمل وقلق عودتها السريعة إليه.

ولأن "الهلال" لا تعرف من دون جورجي زيدان، ولا يعرف هو من دونها، فإنني معني في هذه القراءة لتاريخهما أن أتوقف عند ما يعنيه بالنسبة إليّ! الدور الذي اضطلع به جورجي زيدان بواسطة المجلة ذاتها وبواسطة نتاجه الثقافي المتعدد الجوانب.

لقد قرأت الكثير سابقاً، وأنا أقرأ اليوم الكثير مما كتب عن كليهما. وقد أهداني ذات عام كل من صديقي كامل زهيري ومصطفى نبيل أعداداً قديمة أعيد نشرها من المجلة. وتشير هذه الأعداد إلى رقي في العمل الصحفي منذ ذلك التاريخ وإلى براعة ومعرفة مستقاة مما كانت قد اغتنت به المؤسسات العلمية في أوروبا على وجه التحديد. ومن هنا أهمية الدور الريادي الذي اضطلع به اللبنانيون الذين هاجروا منذ وقت مبكر إلى مصر وأسسوا الصحف والمجلات التي لعبت وما تزال تلعب أدواراً مهمة في مصر وفي العالم العربي.

فمن هو جورجي زيدان وكيف تكونت شخصيته بالتدريج ليصبح حامل هذا التاريخ الرائع؟

ولد جورجي زيدان في بيروت في عام ١٨٦١ لأسرة مسيحية فقيرة، كان عائلها رجلاً أميناً يملك مطعماً صغيراً كان يرتاده بعض أهل الأدب واللغة والعديد من طلاب الكلية الإنجيلية (الجامعة الأميركية). ولما بلغ جورجي الخامسة من عمره أرسله والده إلى مدرسة متواضعة ليتعلم القراءة والكتابة والحساب، الأمر الذي يمكنه من مساعدة والده في إدارة المطعم وضبط حساباته. ثم التحق بمدرسة لتعلم الفرنسية، ثم تركها بعد فترة والتحق بمدرسة مسائية تعلم فيها الإنجليزية. لم ينتظم جورجي في المدارس. فتركها جميعها الواحدة تلو الأخرى ليتحق بمطعم والده. إلا أن والدته سارعت إلى إخراجه من المطعم وأرسلته لتعلم صناعة الأحذية، وكان في الثانية عشرة. ولم يقض سوى عامين في تعلم تلك المهنة. إذ اضطر للتخلي عنها لعدم ملاءمتها لصحته. إلا أن تنقله في أعماله تلك لم تشغله عن القراءة. فقد كان يبدي ميلاً قوياً إلى المعرفة والشغف بالأدب على وجه الخصوص. وتوثقت صلته

بعدد كبير من المتخرجين من الكلية الأميركية من أهل اللغة والأدب من أمثال يعقوب صروف الذين كانوا يدعونهم إلى المشاركة في احتفالات الكلية. فترك العمل نهائياً. وانكب على التحصيل والمطالعة. ثم التحق بكلية الطب بعد اجتيازه بعض المواد العلمية التي عكف على تعلمها خلال ثلاثة أشهر. إلا أنه لم يبق سوى عام واحد في كلية الطب وانتقل إلى كلية الصيدلة. وقبل أن ينهي دراسته في كلية الصيدلة قرر السفر إلى القاهرة لمتابعة دراسته في كليتها. ولم يكن معه ما يكفي نفقات السفر، فاقترض من جار له ستة جنيهات على أن يردها حينما تتيسر له الأحوال. ولدى وصوله إلى القاهرة في عام ١٨٨٣ صرف النظر عن الالتحاق بكلية الطب لطول مدة الدراسة. وأخذ يبحث عن عمل يتفق مع ميوله. فعمل محرراً في صحيفة "الزمان" اليومية التي كان يملكها ويديرها رجل أرمني الأصل يدعى علسكان صرافيان. كانت صحيفة "الزمان" الجريدة اليومية الوحيدة في القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الانكليزي صحافة ذلك الزمن. وبعد عام من عمله في الصحافة عين مترجماً في مكتب المخابرات البريطانية في القاهرة. ورافق الحملة الانكليزية التي توجهت إلى السودان لإنقاذ القائد الانكليزي غوردون من حصار ثورة المهدي وجيوشها. ودامت إقامته في السودان عشرة أشهر عاد بعدها إلى بيروت في عام ١٨٨٥.

في بيروت انضم جورجى إلى المجمع العلمي الشرقي الذي كان قد أنشئ في عام ١٨٨٢ للبحث في العلوم والصناعات والإفادة منها بما يعود على البلاد بالنفع والخير. وتعلم اللغتين العبرية والسريانية. وأصدر في عام ١٨٨٦ أول كتبه "فلسفة اللغة العربية". وأعاد طبعه منقحاً ومعدلاً في صيغة جديدة في عام ١٩٠٤ تحت عنوان "تاريخ اللغة العربية".

استقر جورجى زيدان في القاهرة وتولى عقب عودته من لندن إدارة مجلة "المقتطف". وظل يمارس عمله فيها عاماً ونصف العام. انتقل بعد ذلك إلى تدريس اللغة العربية في المدرسة "العبيدية

الكبرى" لمدة عامين. ثم تركها ليشارك في عام ١٨٩١ مع نجيب متري في إنشاء مطبعة. إلا أن الشراكة بينهما لم تدم سوى عام واحد. واحتفظ جورجى زيدان بالمطبعة لنفسه وأسمها مطبعة "الهلال" وأتبعها بإصدار مجلة "الهلال" في عام ١٨٩٢. وكان يقوم بتحريرها بنفسه إلى أن كبر ولده إميل وصار يساعده في تحريرها.

كان جورجى زيدان متمكناً من اللغتين الانكليزية والفرنسية إلى جانب اللغة العربية. وكان واسع الاطلاع بهما لا سيما ما يتصل بالتاريخ والأدب العربيين. فأصدر في عام ١٨٨٩ كتاب "تاريخ مصر الحديثة" في مجلدين، و"تاريخ الماسونية والتاريخ العام". وهو كتاب يوجز فيه تاريخ قارتي آسيا وأفريقيا. ثم توالى كتبه التاريخية فأصدر الكتب التالية: "تاريخ انكلترا" و"تاريخ اليونان" و"تاريخ الرومان" و"جغرافية مصر" وغيرها. إلا أن هذه الكتب لم تلفت إليه الأنظار ولم تلق نجاحاً يذكر إلى أن أنشأ مجلة "الهلال" التي ارتبطت حياته بها ارتباطاً وثيقاً.

صدر العدد الأول من مجلة "الهلال" في عام ١٨٩٢. وكتب افتتاحية العدد الأول ليوضح فيها خطته وغايته من إصدار المجلة. وقد عكف على تحريرها بنشاط لفت إليه الأنظار. وكان ينشر فيها كتبه في شكل فصول. وقد لقيت تلك الكتب قبولاً لدى القراء. ولم يكد يمضي على صدورها خمسة أعوام حتى أصبحت من أوسع المجالات انتشاراً. وكان يكتب فيها كبار أهل الفكر والأدب في مصر وفي العالم العربي. وتوالى على رئاسة تحريرها كبار الكتّاب والأدباء.

إلا أن جورجى زيدان قد اشتهر، إلى جانب عمله في المجلة وإلى جانب كتاباته في اللغة وفي تاريخ العالم، برواياته التاريخية التي بدأها برواية "المملوك الشارد" في عام ١٨٩١. ثم تتابعت رواياته حتى بلغت اثنتين وعشرين رواية تاريخية، منها سبع عشرة رواية تعالج فترات من التاريخ الإسلامي، تمتد من الفتح الإسلامي إلى دولة المماليك أذكر منها "أرمانوسة المصرية" و"غادة كربلاء" و"فتح الأندلس"

و"العابسة أخت الرشيد" و"الأمين والمأمون" و"شجرة الدر" و"استبداد المماليك". وقد لقيت هذه الروايات رواجاً واسعاً وترجمت إلى الفارسية والتركية والأذربيجانية وغيرها من اللغات. ويعتبر كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" الذي صدر في خمسة أجزاء بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٦ من أهم كتبه.

خاض جورجى زيدان على صفحات مجلة "الهلال" وخارجها معارك عديدة وتعرض للهجوم بسبب ما جاء في بعض كتبه وكتاباتاته من آراء ومواقف. وكان أكثرها إيلاماً بالنسبة إليه ما تعرض له بسبب كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" الذي كان قد اعتمده في التدريس في الجامعة. إذ قامت حملة ضده من قبل الإسلاميين مطالبة بمنعه من تدريس تاريخ الإسلام بسبب انتمائه إلى الدين المسيحي. ويقول محمد عبد الغنى في فصل من الكتاب الذي كرسه لسيرة جورجى زيدان، يقول: "يقول المؤرخ جورجى زيدان لانتقادات كثيرة من الفرق الإسلامية المختلفة والطوائف المتعددة في كتبه حول العرب والإسلام وفي رواياته للتاريخ الإسلامي ثم يقول: "والحق أنه فتح على نفسه باباً ما كان أغناه عنه، ولكن الرجل كان باحثاً، وكان يفتش في ترايخ واسع متشعب للعرب والمسلمين. وما كان يدري أنه لن يرضي أحداً، مهما كان محايداً". لكنه -أي صاحب الترجمة- يعتبر أن هذا قدر الشجعان في التاريخ العربي، ويذكر العديد من الكتاب والباحثين العرب الذين تعرضوا للتشنيع بغير وجه حق مثل ابن حزم الأندلسي. إلا أن وضع جورجى زيدان يختلف في كونه غير مسلم يبحث في تاريخ الإسلام ومن هنا وضع الحرج. وهو نفسه يشير إلى هذا الأمر في مقدمة الجزء الثالث من "تاريخ آداب اللغة العربية" حين يقول: "تصدينا للكتابة في تاريخ الإسلام، والقراء لم يتعودوه، والمسلمون معجبون بتاريخهم وغير المسلمين لا يعرفون عن الإسلام إلا ما وصلهم من مطاعن الأجيال المظلمة، فكان حظنا من المؤاخذة مضاعفاً" غضب بعض المسيحيين لأننا - على زعمهم- بالغنا في ذكر فضائل الإسلام حتى اتهمنا بالمروق من النصرانية، وقال بعض المسلمين إننا قصرنا في ذكر فضائل الإسلام". وكان زيدان في مقدمة الجزء الثاني من الكتاب نفسه علل هذه المسألة بقوله أن الحرج ليس مختصاً به بقدر ما هو حرج الكاتب الشرقي عامة

حين يتحدث في مثل هذه المسائل ثم يقول: "فليس في الدين جمهور استحکم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية، فهم مختلفون موطناً ومشرّباً مذهباً وتربية، فلا يتأتى الكاتب إرضاءهم جميعاً، ولو أوتي علم الأولين والآخرين".

أما مصطفى نبيل الذي كان يرأس تحرير مجلة "الهلال" في تسعينات القرن الماضي فيقول في مقدمة كتاب يضم بعض الأعداد القديمة من المجلة: "ودارت على صفحات "الهلال" مناقشات واسعة حول حقوق المرأة وحرّيتها، وهي أول من نادى بالمساواة ودعا إلى رفع. وبدأ طرح القضية من خلال سؤال لأحد القراء في عدد ١٥ يناير ١٨٩٤ يتساءل.. لماذا لم تكتب الهلال عن كفاءة النساء للقيام بأعمال الرجال؟ وأجاب محرر الهلال مؤكداً.. كفاءة المرأة المطلقة في القيام بالأعمال العقلية والبدنية مع الرجل، مما يستوجب المساواة في الحقوق. وكان السؤال والإجابة إشارة البدء لتناول الموضوع، وتوالت المقالات بعضها يؤيد وبعضها يعارض، وعندما نشر د. أمين الخوري مقاله الذي يؤكد فيه الفارق البيولوجي بين الذكر والأنثى، رد عليه كل من جرجس الياس وإستير زهدي، ولا يوجد عدد من أول فبراير سنة ١٨٩٤ حتى أو ليونيو ١٨٩٤ إلا وأفرد عدد من صفحاته لهذه المسألة. وعندما تعرض قاسم أمين لحملة ضارية بعد نشر كتابه "تحرير المرأة" دافعت عن أفكاره مجلة الهلال في عدده الصادر في أول مارس ١٩١٠، ومما ذكرته "إن قاسم أمين من المصلحين الأفاضل، ولا أظنه قام بنصرة المرأة إلا وهو يتوقع تلك المقاومة. وهي شجاعة أدبية نادرة، وليس فضل قاسم أمين في معرفة حقوق المرأة وواجبها ودورها في إصلاح الهيئة الاجتماعية بعشر معشار فضله في التصريح بذلك على رؤوس الملاء ومقاومة تيار العادات والتقاليد البالية".

ويشير مصطفى عيسى في مقال له حول الحملة التي تعرّض لها زيدان من قبل بعض الفرق الإسلامية إلى أن مصطفى لطفى المنفلوطي تصدى للدفاع عنه: "وتصدى مصطفى لطفى المنفلوطي

لهذه الحملة مدافعاً عن جورجي زيدان، وكتب في صحيفة "المؤيد" قائلاً: "كان واسع الصدر وقف له ف، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنا وراء أكمة الذين ليرموه فيصموه، وقالوا إنه شوّه التاريخ الإسلامي، وعبث بحقائقه، ولم يسألوا، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون، فلم يجدوه حيث أرادوا فرموه بسوء القصد في عمله، وخبث النية في مذهبه... وعندي أن أحداً منهم ما كان يعتقد شيئاً مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشتري، وأنه سلعة ملك لهم وحدهم. وقالوا إنه سوري دخيل وفد هذا البلد مسترزقاً أو متجراً فما هو بمخلص ولا بأمين، وفاتهم أنه كان ضعيفاً فليس من أدب الضيافة ولا من خلال المروءة والكرم أن يمن الضيف على ضيفه. ولا أدري كيف تتسع صدورهم للخمار واللص والقواد والأجانب يفتح في مدنهم وقراهم حانة يسلب فيها عقولهم أو يسرق فيه أموالهم فلا يطاردونه، ثم يضيقون ذرعاً بالعالم". ويلاحظ أنه وجهت إلى جورجي زيدان ذات الاتهامات التي وجهت -فيما بعد- إلى الدكتور طه حسين، رغم أن زيدان بوصفه لبنانياً بين مصريين، ومسيحياً، قد نضطر إلى تجنب الخوض في السياسة والدين. وكان يرى أن التاريخ العربي يجب أن يكون من المكونات الفكرية للمسلمين والمسيحيين العرب جميعاً. وكان يحق كما وصفه المستشرق هاميلتون جيب "مدرس مصر خارج المدرسة".

لم يترك جورجي زيدان في قيادته لمجلة "الهلال" أي موضوع من المواضيع التي كانت مدار سجال ونقاش في مصر وفي العالم العربي وفي العالم إلا وأفرد له في المجلة ما تستحقه من الاهتمام. فنشر الكثير مما كان يرد إليه من الكتاب بشأنها، فضلاً عن ترجمة المقالات التي كانت تشير إلى تلك القضايا. وكان من بين تلك القضايا قضية الاشتراكية التي أفرد لها زيدان صفحات عدة تضمنت مقالات لكتاب مصريين وترجمات لمقالات كتبها من كانوا يدافعون عن الاشتراكية أو كانوا ينتقدونها. إذ كان يهدف من نشر تلك المقالات نشر الوعي لدى القراء بالقضايا التي هي مدار نقاشات في مصر. وهكذا تكون مجلة "الهلال" بالدور الذي قامت به في عهد قيادة جورجي زيدان لها وفي العهود اللاحقة قد شكّلت



مدرسة بكل المعاني، ومركزاً من أهم مراكز تعميم المعارف في المجتمع المصري وفي المجتمع العربي. ساعدها في دورها ذلك كونها كانت منتشرة في كل البلدان العربية.

جورجي زيدان ومجلة "الهلال" توأمان لا يمكن الحديث عن أي منهما بمعزل عن الآخر. وهكذا يكون لجورجي زيدان مؤسس هذه المجلة العظيمة الشأن فضل على القارئ العربي في نشر العلم والمعرفة، ليس عبر مجلة "الهلال" وحسب، بل عبر كتبه التي كانت مدرسة مكملة لمدرسة "الهلال".

### إميل وشكري زيدان

كان إميل في الحادية والعشرين من عمره عند وفاة أبيه في عام ١٩١٤. ولد في القاهرة في عام ١٨٩٣. تلقى دروسه في مدارس الفرير. وبعدما نال البكالوريا أرسله أبوه إلى الجامعة الأميركية في بيروت. وفور تخرجه عاد إلى القاهرة ليساعد أباه الذي ما لبث أن توفي وترك الدار بين يديه. تولى إميل إدارة المجلة وأعان أخاه الأصغر شكري على استكمال دراسته. وكان شكري قد ولد في القاهرة في عام ١٩٠٠. تابع دراسته في مدرسة اليسوعيين في العاصمة المصرية إلى أن نال البكالوريا في عام ١٩١٨. وانتقل إلى بيروت ليدرس الآداب في الجامعة الأميركية. لكنه اضطر إلى قطع الدراسة بعد سنة والعودة إلى القاهرة ليكون إلى جانب أخيه إميل. وإذ أدرك إميل أن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تكن تسمح بتطوير الدار، فقرر مع شقيقه شكري أن نجحها إنما مرتبط بتطوير صناعتها. فسافر إلى ألمانيا واستقدم أحدث آلات الطباعة في عام ١٩٢١. وبدأ الأخوان زيدان في إصدار المجلات الواحدة منها تلو الأخرى. ولم يدخلوا في منافسة مع أصحاب الصحف اليومية، بل كثفا جهدهما في الإهتمام بالمجلات الأسبوعية.

وفي عام ١٩٢٤ أصدرت مجلة "المصور" سياسية أسبوعية مصورة. وأصدرت في السنة التالية مجلة "كل شيء والدنيا" أسبوعية أدبية إجتماعية متنوعة، واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٣٩. ثم أصدرت "الفكاهة" في عام ١٩٢٦ و"الدنيا المصورة" في عام ١٩٢٩ و"الأبطال" في عام ١٩٣٢. وفي عام ١٩٣٤ صدرت مجلة "الإثنين" التي تولى مصطفى أمين رئاسة تحريرها. وفي عام ١٩٤٩ أصدرت العدد الأول من سلسلة "روايات الهلال" الشهرية. وفي العام ذاته صدرت مجلة "الكواكب" فنية أسبوعية تعنى بشؤون السينما والمسرح والغناء والفنون عامة. وفي عام ١٩٥١ بدأ نشر كتاب الهلال شهرياً، ما أفسح في المجال للعديد من الكتاب المصريين والعرب لنشر إبداعاتهم فيه. وفي عام ١٩٥٣ صدرت مجلة "حواء" النسائية الأسبوعية وتولت أمينة السعيد رئاسة تحريرها. ثم صدرت مجلة "سمير" للأطفال في عام ١٩٥٦.

بعد تأميم دار الهلال في عهد الرئيس جمال عبد الناصر استقال شكري وغادر إلى بيروت وأقام فيها حتى وفاته. أما إميل فاستمر في الدار حتى بلوغه سن التقاعد. وظل مقيماً في القاهرة حتى وفاته في عام ١٩٨٢.